

المؤثرات النفسية في حروب العرب والمسلمين

علي يوسف نور الدين (*)

عرفت المنازعات بين البشر عبر تاريخها الطويل، إلى جانب الحروب العسكرية التقليدية، نوعاً آخر من الحروب، أشد فتكاً، وأبعد غوراً في النفوس من النوع الأول.

وبقدر ما كان أحد طرفي الصراع محيطاً بأساليب هذه الحرب الرديفة، عالماً بفنونها، كان أكثر حنكة ودهاء في ممارستها... ثم في ترجيح كفة النصر، وحسم الأمور لمصلحته.

ويمتاز هذا النوع من «الصراع» بشموليته واتساع رقعته؛ فضلاً عن أثره المستمر في النفوس على مدار الساعة: سواء في أوساط هذا الطرف، أو ذاك، أو في كليهما معاً، حيث يعمل في صفوف الجيش والشعب دون استثناء، الأمر الذي تتقرر معه - في أحيان كثيرة - نتائج كثير من الحروب، قبل أن تبدأ.

هذه الحرب، أو هذا الصراع، هو «حرب المؤثرات النفسية»، أو ما يُعرف بالمصطلح العسكري المعاصر - في بعض جوانبه - بـ «الحرب النفسية»؛ وهي حرب برع المسلمون في ممارستها منذ تباشير الدعوة الإسلامية الأولى، وحققوا من خلالها انتصارات عظيمة، على قلة عددهم، وضعف إمكانياتهم المادية، وصعوبة تجهيزهم في ذلك الوقت.

وهذه الحرب تقوم على مرتكزين:

الأول: ويتمثل بالجهاد الأكبر، وهو «الصراع مع الذات»، ويقوم على تشجيع الجيش الإسلامي، وزيادة تلاحمه وتماسكه من خلال رفع معنوياته وزرع الثقة والجرأة، واستشعار القوة في نفوس عناصره.

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب - الفرع الرابع - قسم اللغة العربية.

الثاني: ويتمثل في «صَرْع العدو»، من خلال العمل على تحطيم معنوياته وإماتة نفسيته، وبذر أسباب الوهن والخلاف بين صفوفه وزرع الرعب المستمر بين جوانحه.

وكثيراً ما تلعب عوامل أحد هذين المرتكزين، الدورين معاً.

وهذه العوامل تنقسم بدورها - زمنياً - إلى ثلاثة أقسام:

- 1 - قسم يُمارسُ في أوقات السلام، ويختص بها: وأهدافه منبسطة الأجل.
- 2 - قسم يسبق الصدام العسكري المباشر، أو يترافق معه، وهو الأكثر مضاءً، والأسرع ثماراً.
- 3 - قسم يلي الصدام المباشر، وهو متفاوت في سرعة تأثيره ونتائجه، تبعاً لوسائل تنفيذه.

القسم الأول

يقوم هذا القسم على إخافة العدو وإرهابه، بصورة غير مباشرة، وذلك من خلال إظهار عظمة الدولة وجلالها، وأبهتها... ويتمثل هذا في عدة أمور، منها:

أ - المواكب الخلافية أو الملوكية:

لم يكن للنبي (ص) في غدواته وروحاته، موكب يختص به، بل كانت تنقلاته في غاية البساطة، والتواضع، خالية من أي مظهر من مظاهر البذخ أو الترف أو الأبهة. وعلى سُنَّةِ الرسول الأكرم، سار الخلفاء الراشدون من «خشونة العيش والقرب من الناس وإطراح الخيلاء وأحوال الملوك، مع ما فتح الله تعالى عليهم من الأقاليم وجُبي إليهم من الأموال»⁽¹⁾... ولم يزل الأمر على ذلك، إلى أن سلّم الإمام الحسن الأمر إلى معاوية فعمد هذا الأخير إلى إقامة شعار المُلْك وإظهار أبهة الخلافة، وأخذ في ترتيب أمورهما على نظام الملك، لما في ذلك من إرهاب للعدو وإخافته.

وتذهب المصادر المختلفة، إلى أن ذلك كان شأن معاوية، وهو أميرٌ على الشام، قبل أن يلي الخلافة. ومن ذلك «أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قدم الشام في خلافته، وهو راكب على حمار، ومعه عبد الرحمن بن عوف، ومعاوية أمير على الشام. فخرج معاوية لملاقاته في موكب عظيم... في أبهة الملك وزِيَّه، من العديد والعُدَّة... فلقيه في طريقه في خَفٍّ من القوم، وتعدّاه طالباً له، ثم عرّف ذلك في ما بعد، فرجع وسلّم على أمير المؤمنين عمر... الذي استذكر ذلك وقال، أكسروية يا معاوية؟... فقال: يا أمير المؤمنين: أنا بارضٍ يكثُر فيها جواسيس العدو، فأحتاج أن أظهر لهم من أبهة

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، الطبعة الأميرية، القاهرة، 1331 - 1338 هـ؛ ج. 3/266. وانظر: ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960، ص 362.

الملك والسلطان ما يزعمهم، فإن أمرتني به، اثمترت، وإن نهيتني عنه، انتهيت. فقال: إن كان ما قلت حقاً، فإنه لرأي أديب؛ وإن كان غير حق، فإنه لخدعة أريب...»⁽²⁾.

فلما صارت الخلافة إلى معاوية⁽³⁾، زاد في حُسن الترتيب وإظهار الأبهة، وأخذ الخلفاء بعده في مضاعفة ذلك والاحتفال به، حتى أمست الخلافة في أعنى ما يكون، من ترتيب الملك، وفاقته في ذلك الأكاسرة والقياصرة، بل اضمحل في جانب الخلافة سائر الممالك العظام، وانطوى في ضمنها ممالك المشارق والمغرب، خصوصاً في أوائل الدولة العباسية، في زمن الرشيد ومن والاه⁽⁴⁾، ثم في زمن الدولة الفاطمية⁽⁵⁾، وفي الأندلس، وبالأخص في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، ثم في عهد الحاجب المنصور ابن أبي عامر⁽⁶⁾.

ب - مراسم استقبال السفراء الأجانب، وأبهة ذلك:

حرص الخلفاء المسلمون - سواء في المشرق أو في المغرب - خلال استقبالهم للسفراء الأجانب، على الظهور أمامهم بأرقى مظاهر الأبهة والفخامة، وإبراز آخر إنجازاتهم الحضارية، وابتكاراتهم العلمية، وسط حشود جماهيرية وعسكرية هائلة، منظمة أفضل تنظيم، وموضوعة على أحسن ترتيب؛ حتى إذا رجع السفير إلى بلاده، حدث أركان دولته بما رأى وسمع.

ولعل أفضل مثال على ذلك - في المشرق - استقبال الخليفة العباسي «المقتدر بالله» (320هـ/932م) رسول الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع، الذي وقَد على بغداد سنة 305هـ/917م، ملتصقاً من الخليفة الفداء والمهادنة⁽⁷⁾.

أما في المغرب والأندلس، فإن إظهار عظمة الدولة فيهما، عند استقبال السفراء الأجانب، لم يكن ليقُل روعة وفخامة ومهابة، عما كان عليه في المشرق، وخصوصاً في عهد الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر (ت سنة 350هـ)، حيث كان استقباله لرسل ملك الروم الأكبر⁽⁸⁾ يوماً مشهوداً لم تعرف له الأندلس مثيلاً من قبل⁽⁹⁾.

(2) انظر: ابن عبد ربه: العقد، تج. العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1953، ج. 1/10، ابن خلدون: المقدمة، ص 360، القلقشندي: صبح الأعشى، 3/267، ومآثر الإنافة، تج. عبد الستار فراخ، عالم الكتب، بيروت، لا.ت. 2/225.

(3) أشار النبي (ص) إلى ذلك بقوله: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم مُلك بعد ذلك. فكان آخر الثلاثين، خلافة الحسن بن علي ابن أبي طالب. انظر: الخطيب التبريزي: مشكاة المصابيح، تج. الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، 1979. الأحاديث، 5395/6057/6270.

(4) انظر: صبح الأعشى، 3/367، ومآثر الإنافة، ص 225.

(5) انظر ذلك بإسهاب في: صبح الأعشى، 3/494 وما بعدها.

(6) انظر: المقرئ: نفح الطيب، 1/366 و388، وابن عذاري: البيان المغرب، 2/215.

(7) انظر كتابي القلقشندي: صبح الأعشى، 3/268، ومآثر الإنافة، 2/226.

(8) هو قسطنطين السابع، الذي سبق أن أرسل رسولاً إلى المقتدر العباسي.

(9) انظر تفصيل ذلك في ابن عذاري: البيان المغرب، تج. كولان، دار الثقافة، بيروت، 9183، ج 2/215، وفي المقرئ: =

ج - استقبال الملوك الأجانب:

أما إذا كانت المناسبة استقبال بعض الملوك الأجانب - وهو أمر نادراً ما حدثنا عنه كتب التراث - فإنه عندئذ تستنفر جميع أجهزة الخلافة، لحشد كل كبيرة أو صغيرة، مما يساعد على إظهار الخلافة بأبهى حُلَّها، وعظيم شأنها، لأن الملك رأس دولته وعقلها المفكر، وقلبها المحرك لجميع مقدراتها: وهو الوافد بشخصه، المبصر بعينه وفؤاده، السامع بأذنه. لذا، عمل الخلفاء المسلمون، على بث الروح في كيانه، بكل ما أوتوا إلى ذلك سبيلاً، من مظاهر المجد والقوة والعنفوان.

وكان في طليعة هؤلاء الخلفاء، خليفة الأندلس دون منازع، عبد الرحمن الناصر، الذي كان له في هذا المجال عين ثاقبة، وبصيرة نافذة، حتى بسط هيئته على جميع الأمم في عصره «وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم، إلا وقَدَّتْ عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية»⁽¹⁰⁾.

حتى إذا خلفه ابنه الحكم المستنصر (ت سنة 366هـ)، بلغت الخلافة في عهده أبهى سناها، وحازت من الفخامة منتهاها، ولم يكن قد مضى غير سنة على اعتلائه العرش حتى كان يستقبل في بلاطه ملك جليقية، أرْدُن بن أدفونش الأحذب، الذي بُهت وأصحابه من خلال الخلافة، «فراعهم ما أبصروه، وصلُّبوا على وجوههم، وتأملوا ناكسين رؤوسهم، غاضين من أجفانهم، قد سكرت أبصارهم»⁽¹¹⁾...

د - العروض العسكرية:

ومن مظاهر التأثير النفسي التي استنَّها الحكام المسلمون، لرفع معنويات شعوبهم وإرهاب أعدائهم في آن، تنظيم العروض العسكرية بين الفينة والفينة. وأكثر مَنْ جرى على هذا المذهب، ملوك الموحدين (515هـ - 668هـ) في المغرب والأندلس.

ومن ذلك، ما ذكره أبو جعفر أحمد بن عطية، وزير عبد المؤمن بن علي⁽¹²⁾ وكتابه، من أن عبد المؤمن كان إذا أمر بعرض العساكر، جلس في مكان مطل، وجُعِلَت العساكر

= نفح الطيب، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج. 1/366، وفي كتابنا: الدبلوماسية في الإسلام (تحت الطبع).

(10) نفح الطيب، 1/366. وانظر: ابن عربي: محاضرة الأبرار، دار اليقظة العربية، بيروت، 1968، ج. 2/454، وليفي بروقنسال: حضارة العرب في الأندلس، مكتبة الحياة، بيروت، لا.ت. ص 81.

(11) البيان المغرب، 2/235. وانظر تفاصيل هذا الاستقبال المثير في: نفح الطيب، 1/388 وما بعدها، وفي كتابنا: الدبلوماسية في الإسلام.

(12) هو أول خلفاء الموحدين، والمؤسس الحقيقي لدولتهم في المغرب، استمر حكمه إحدى وعشرين سنة، إذ انتهى بوفاته سنة 558هـ انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح. العريان والعلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949، ص 197.

«تمرُّ عليه، قبيلةٌ بعد قبيلة، وكتيبةٌ إثر كتيبة: لا تمرُّ كتيبةٌ إلاً والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح، وفراة خيل، وظهور قوة»، فيما عبد المؤمن يقول: «يا أبا جعفر، هذا هو المنظر الحسن»⁽¹³⁾.

وممن سلك هذا المسلك في المشرق، السلطان صلاح الدين الأيوبي: إذ يورد المقرئ في الخطط عن القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، أنه قد «خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر، قديمها وجديدها؛ بعد أن أُنذر حاضرها وغائبها... وتوافى وصولها، وتكامل سلاحها وخيولها. فحضر في ذلك اليوم جموع شهد كل من علا سُنَّه، وقرطس ظنه، أنَّ ملكاً من ملوك الإسلام لم يحز مثلها. وشاهدت رُسل الروم والفرنج، ما أرغم أنوف الكفرة...»⁽¹⁴⁾، والمسلمون بهذا العمل، إنما ينطلقون من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾⁽¹⁵⁾... حتى في أوقات السلم.

هـ - أمور أخرى:

وفضلاً عن الاهتمام المتواصل للحكام المسلمين بتقوية جيوشهم، والسهر الدائم على زيادتها عدداً وعُدَّة، فقد حرص هؤلاء القادة، على ترسيخ الطمأنينة في نفوس الجنود، عن طريق تفقدتهم باستمرار للوقوف على أحوالهم عن كثب... ومن ثم إدرار العطاءات عليهم، وإشراكهم في توزيع الغنائم بعد الحروب المظفرة، ليكون ذلك مبعث راحة نفسية لهم، وحافزاً يدفع بهم إلى صدق اللقاء، والثبات عند المواجهة. وقد أشار الطرطوشي في كتابه سراج الملوك إلى هذا فقال:

«... وينبغي للملك أن يتفقد جنوده، كتفقد صاحب البستان بستانه، فيقلع العشب الذي لا ينفعه؛ فمن العشب ما لا ينفع، ومع ذلك يضرُّ بالنبات النافع، فهو بالقلع أجدر... ولا يُستصلح الجُنْد إلاً بإدرا رزاقهم وسدَّ حاجاتهم، والمكافأة لهم على قدر غنائمهم»⁽¹⁶⁾ وبلائهم... وعلى الجُنْد الجدُّ عند اللقاء، والصبر عند البلاء»⁽¹⁷⁾.

القسم الثاني

ويتفرع هذا القسم بدوره إلى ثلاثة فروع:

1 - فرع يقتصر تأثيره على المسلمين.

(13) المعجب، 201، وانظر الصفحات: 202 و226 و297 من نفس الكتاب.

(14) المقرئ: الخطط، دار الطباعة المصرية، القاهرة، 1953، ج. 1/86. وانظر أيضاً: هادية دجاني: القاضي الفاضل ونؤزّه التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1993، ص 128.

(15) سورة الأنفال، من الآية 61.

(16) الغناء (يفتح الغين): النفع والكفاية، لسان العرب غنا.

(17) الطرطوشي: سراج الملوك، شركة رياض الرئيس، بيروت، 1992، ص 366. وانظر ص: 370 من نفس الكتاب.

2 - فرع يقتصر تأثيره على العدو.

3 - فرع يلعب الدورين معاً.

الفرع الأول:

هو أهم هذه الفروع الثلاثة، وأقواها تجذراً في نفوس المسلمين؛ لأنه يمسُّ جوهر تفكيرهم وعقيدتهم وعاداتهم. ويقوم هذا الفرع على عدة عوامل:

أ - الدين والعقيدة:

يُعتبر الدين العامل الأهم - إن لم يكن الأوحد - الذي ساهم في توحيد العرب، ثم المسلمين، بعد أن جرى في عقولهم ووجدانهم وأفئدتهم مجرى الروح من الجسد فأنسوا - من خلاله - في أنفسهم القوة والمنعة، وتزوّدوا من مبادئه وتعاليمه بأقوى سلاح يشدُّ أزرهم، ويقوّي عزيمتهم، لينطلقوا بعد ذلك من صحرائهم، إلى أمم الأرض، وقد تجلببوا الإيمان، وتدرّعوا العقيدة، رافعين لواء الدعوة والجهاد، يقاتلون في سبيل الله صفّاً واحداً، بعد أن كانوا من قبل، قبائل شتى، متناحرة متنافرة، يغزو بعضها بعضاً.

وقد أشار ابن خلدون إلى الدور الحاسم لهذا العامل في توحيد العرب، وإشعارهم بقوتهم وصدق دعوتهم، فقال في المقدمة:

«إن العرب لا يحصل لهم المُلْك، إلاّ بصيغة دينية: عن نبوة أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين، على الجملة، والسبب في ذلك، أنهم لَخُلِقَ التوحش الذي فيهم، أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبُعْدِ الهمة والمنافسة في الرياسة؛ فقلماً تجتمع أهواؤهم. فإذا كان الدين، بالنبوة أو الولاية، كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خُلُقُ الكبر والمنافسة منهم، فَسَهِّلَ انقيادهم واجتماعهم؛ وذلك بما يشملهم من الدين، المُذِيب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافذ. فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تَمَّ اجتماعهم، وحصل لهم التغلّب والمُلْك»⁽¹⁸⁾.

وما ذهبنا إليه، تؤكده الأحداث التاريخية - من سياسية وعسكرية - التي ما زالت تتعاقب حتى عصرنا هذا.

فقد كان المسلمون في بداية أمرهم قلةً في العدد والعدة، وهم - مع ذلك - قد واجهوا أكبر أمبراطوريتين في ذلك الزمن: الأمبراطورية الفارسية، والأمبراطورية البيزنطية. ومع أن جيوش المسلمين في موقعتي «القادسية» أو «اليرموك» مثلاً، لم تكن

(18) ابن خلدون: المقدمة، ص 266.

لتزيد على بضع وثلاثين ألفاً، مقابل مائة وعشرين ألفاً من جموع الفرس (في القادسية)، ونحو أربعمئة ألف من جموع هرقل (في اليرموك)، فإنه لم يقف أمام العرب أحدٌ من الجانبين⁽¹⁹⁾، إذ «إن الاجتماع الديني، ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة»⁽²⁰⁾.

فضلاً عن هذا، فقد كان الدين - بعد اتساع الفتوحات الإسلامية - هو العامل الوحيد أيضاً، الذي لا بُدَّ منه، لَخَلَقَ روح التضامن والتآلف بين فئات متعددة من الأمم، متباينة في اللغة والبيئة والعادات والتقاليد، وجعلها تقاتل - بالتالي - في سبيل الله صفاً واحداً، ويشدُّ بعضها بعضاً كالبنيان المرصوص... وما كان هذا الأمر ليتأتى للنبي (ص)، أو لأحد من القادة المسلمين، لولا هذا العامل الروحي، الشديد الغور في أعماق النفس، «ولو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم»⁽²¹⁾؛ ذلك، أن «جمع القلوب وتاليفها، إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه... وسرّه، أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس، وفشا الخلاف؛ وإذا انصرفت إلى الحق، ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله، اتحدت وجهتها، فذهب التنافس، وقلَّ الخلاف، وحسُنَ التعاون والتعاقد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة»⁽²²⁾، وتوسَّع المُلْكُ، الذي قام بعد اجتماع أهل العصبية الواحدة.. ثم العصبيات المتعددة.

- **التأثير الديني منهج قتالي مستمر:** لم يكن المسلمون يعيشون الدين عقيدةً مطلقة وشاملة فحسب؛ بل كانوا يعيشونه حالةً جهادية مستمرة، ترجع بجميع حيثياتها إلى الله:

فقاله، هو المُبْدَى والمُنْهَى؛ وكلُّ عمل جهادي، إنما هو في سبيله «لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ»⁽²³⁾، وجنوده في ذلك إنما هم المؤمنون حقاً، «الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ، وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»⁽²⁴⁾.

من هنا، كان الدِّينُ في حياة المسلمين، حصناً نفسياً ركيناً، وفعل ممارسة يومية، بل لَحْظَوِيَّة، لا يَنْقَطِعُ أبداً، يلجأون إليه، لِيَسْتَشْعِرُوا من خلاله الراحة النفسية

(19) جرت «القادسية» سنة 15 أو 16هـ/636م؛ وجرت «اليرموك» سنة 15هـ انظر: المسعودي: مروج الذهب، تح. شارل بلا، الجامعة اللبنانية، 1979، ج 3/54 وما بعدها؛ وأبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، تح. عبد الله الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1957، ص 119، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، المطبعة المنيرية، القاهرة، 1348هـ، 2/157 و173.

(20) ابن خلدون: المقدمة، ص 279.

(21) سورة «الأنفال»، من الآية 63.

(22) ابن خلدون: المقدمة، ص 277.

(23) سورة «الأنفال»، من الآية 8.

(24) سورة «الأنفال»، من الآية 2.

والطمأنينة، انطلاقاً من إيمانهم الراسخ، بأن ما يقومون به من فعل جهادي، إنما هو في سبيل الله، وبالتالي فعل الله نصرهم، تبعاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾⁽²⁵⁾. بل لقد جعل الله سبحانه، نصرهم حقاً عليه، فقال: ﴿وَكَانَ عَلَيْنَا حَقّاً نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽²⁶⁾. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلِيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾⁽²⁷⁾.

وهكذا، اتخذ المسلمون الذين ذخيرة نفسية، يستخدمونها في كل موقف من مواقف القتالية، لشحن عزائمهم، وتثبيت أقدانهم⁽²⁸⁾، فضلاً عن كونه دستوراً عسكرياً أيضاً، يحدد لهم أماكن الضعف والقوة، في أنفسهم، أو عند عدوهم... ثم يرسم لهم شكل وسبيل التحرك، تبعاً لذلك⁽²⁹⁾.

وقد لخص الله، هذا الدستور بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوا، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽³⁰⁾.

من هنا ندرك معنى جواب موسى بن نصير للخليفة سليمان بن عبد الملك (ت سنة 99هـ/717م) وقد سألته بعد أن استدعاه قبل أن يكمل افتتاح الأندلس: «... ما الذي كنت تفزع إليه فيما كان من عدوك؟ فأجابه موسى: التوكل والدعاء إلى الله...»⁽³¹⁾.

ولم يقتصر السلاح الديني، على ما زخر به القرآن الكريم، من آيات موجهة مُرشدة، وما أتى به النبي (ص) من أحاديث مُسددة⁽³²⁾. بل لجأ القادة المسلمون في مختلف العصور، إلى استدراك الدين كل أمل يُبشِّرُ بالنصر... وذلك عبر صُورٍ متعددة، منها:

- رُؤْيَاهُم للنبي (ص): في المنام وتبشيره لهم بالنصر فيما هم عازمون عليه⁽³³⁾.

(25) سورة «محمد»، من الآية 7.

(26) سورة «الروم»، من الآية 47.

(27) سورة «الروم»، من الآية 40.

(28) انظر ما كان يقوله المسلمون من آيات وأدعية خاصة بكل موقف من مواقف الحرب، في: نهاية الأرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، لا.ت. ج. 6/171 وما بعدها (للنويري)، وصحيح مسلم، القاهرة، 1349هـ. ج. 35/12 وما بعدها.

(29) انظر على سبيل المثال: سورة «الأنفال».

(30) سورة «الأنفال»، الآيتان 46 و47.

(31) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، (ملحق بتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية) ص 187. وانظر: المعجب، ص 282.

(32) انظر في هذا المجال: صحيح مسلم، 35/12 وما بعدها كتاب الجهاد والسير.

(33) وتجدر الإشارة هنا، إلى أن المسلمين كانوا يستبشرون برؤيا النبي (ص)، لأنهم راوا صدقاً، وذلك تبعاً للحديث الشريف: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ، فَكَأَنَّمَا رَأَى فِي الْيَقَظَةِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ بِهِ»، أو قول (ص): «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ». انظر: ابن سيرين: تفسير الأحلام الكبير، ص 36؛ صحيح مسلم، 26/15 وما بعدها؛ =

- محاكاة السُّنة النبوية الشريفة: إذ كان كثير من القواد المسلمين، يختارون لبء عملياتهم العسكرية، وقتاً مباركاً، عرفوه في السُّنة الشريفة.

وهذا ما فعله مثلاً الملك المظفر، سيف الدين قطز، في معركة «عين جالوت»: إذ «لما رأى عصائب التتار - وكان يوم جمعة - قال للأمراء والجيوش الذين معه: لا تقاثلوهم حتى تزول الشمس (تصبح في الزوال) وتفيء الظلال، وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء والناس، في صلاتهم»⁽³⁴⁾.

- أحاديث الجهاد، واصطحاب الصالحين: التي داخلت حملات الجهاد على مَرَّ العصور، وذلك لوعظ الجنود، وحثهم على القتال، والاستمرار في إطاعة الله ورسوله، وعدم القيام بما يغضب الرب، وهم الواقفون بين يديه، يجاهدون في سبيله... وهم إنما يُنصرون بمعصية عدوهم لله وطاعتهم، هم؛ له؛ الأمر الذي كان له أكبر الأثر في انتصار المسلمين على المغول في عين جالوت⁽³⁵⁾. أما في المغرب، فقد بلغ هذا التوجه في عصر «الموحدين» - في المغرب والأندلس - مبلغاً عظيماً: إذ كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إذا عزم على الغزو إلى بلاد الروم، «أَمَرَ العلماء أن يجمعوا أحاديث الجهاد، تُملَى على «الموحدين» ليدرسوها؛ وهكذا جرت عادتهم... فجمع العلماء ذلك وجاءوا به إليه؛ فكان يمليه على الناس بنفسه، فكان كل واحدٍ من الموحدين والسادة، يجيء بِلَوْحٍ يكتب فيه الإملاء»⁽³⁶⁾.

أما ابنه يعقوب المنصور، فكان إذا عزم على الغزو «كتب قبل خروجه إلى جمع البلاد، بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير، وحَمَلَهُمْ إِلَيْهِ. فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة، كان يجعلهم كلما سار، بين يديه؛ فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجُند (يعني الصالحين)، لا هؤلاء، ويشير إلى الجُند»⁽³⁷⁾...

- وَخِذَةُ الدِّين: وكما أَلَفَ الدين بين قلوب المسلمين، فإنه جمع شملهم في كثير من المواقف الحاسمة، حيث فَضَّلَ قادتهم مصلحة المسلمين على مصلحتهم الخاصة،

= التبريزي: مشكاة المصابيح، 2/ 1297. وفي حوادث رؤياهم للنبي، انظر على سبيل المثال: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص 34، المقرئ: نفع الطيب، ج. 1 ص 240 وص 255، وج. 4 ص 365 وابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1966، ج. 13 ص 225 وما بعدها، وابن خلكان: وفیات الأعيان. تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج 5، ص 320.

(34) ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 226. وانظر: صحيح مسلم، 46/ 12. ابن عذاري: البيان المغرب 2/ 84، ابن الأثير: الكامل في التاريخ 20/ 10، الصدر الحسيني: زبدة التواريخ، تح. محمد نور الدين، دار إقرأ، بيروت، 1985، ص 107 وما بعدها، ابن كثير: البداية والنهاية 12/ 100، والطرطوشي: سراج الملوك، ص 508.

(35) حدثت معركة «عين جالوت» في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة 658هـ/1260م، وكانت هذه المعركة أول ضربة قاتلة تسدد إلى قلب التتار، لتبدأ بعدها شمسهم بالانفول. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1375هـ ج. 7/ 79؛ صبح الأعشى، 4/ 36، ابن أبياس: بدائع الزهور، القاهرة، 1311هـ ص 118.

(36) المعجب، ص 254.

(37) المعجب، ص 286.

عملاً بتعاليم الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾⁽³⁸⁾...

ومن ذلك، أن المعتمد ابن عبَّاد، ملك إشبيلية، عندما شعر بالخطر الإسباني يتهدد ممالك المسلمين في الأندلس، استنجد، حوالى سنة 478هـ، بـيوسف بن تاشفين، أمير «المرابطين» في «المغرب»، لِذَرَّ ذلك الخطر الداهم؛ فَلَامَهُ على ذلك بَقِيَّةُ ملوك الطوائف، وَحَذَّرُوهُ من أطماع ابن تاشفين في بلادهم، فَأَجَابَهُم المعتمد بقوله: «لَأَنْ يَرعى أولادُنَا جِمالَهُم (أي جِمال المِرابطين) أَحَبُّ إِلَيْهِم من أَنْ يَرعُوا خِنازير الفرنج»⁽³⁹⁾.

ب - القِيم والأخلاق:

ومن العوامل النفسية التي لجأ إليها المسلمون في حروبهم للتأثير على مجرى الأحداث والمعارك، ما يتصل منها بالقيم والأخلاق والأعراف... ولما كانت المحافظة على العرض وصورُ الشرف، راسَ تلك القيم - حتى أنهم في الجاهلية وأدوا بناتهم أحياء هرباً مِمَّا قد يُلْحِقُهُنَّ بقومهنَّ من العار - فقد عمد كثير من القادة المسلمين إلى وَضْع شرف جنودهم على المحكِّ، من خلال اصطحاب عائلات هؤلاء الجنود معهم في غزواتهم، وجَلَّهم وترحالهم. حتى إذا حان النزال، جعلوا عائلاتهم وأموالهم مُصَافاً ورائهم، يلجأون إليه، ويقاتلون دونه: ذلك أن «من أكرم الكَرَم، الدفاعُ عن الحرم»⁽⁴⁰⁾، وليس ثَمَّة ما «يدعو إلى الاستمامة، كما يدعو إليها الأهلُ والمالُ»⁽⁴¹⁾... وإلاَّ، فالسَّبِيُّ والعارُ وهتكَ الأعراض في انتظارهم.

ومن الأعلام الذين اتبعوا هذا الأسلوب في قتالهم، موسى بن نصير: فقد أورد ابن قُتَيْبَة في الإمامة والسياسة، أن موسى لاحظ خلال إحدى مواجهاته مع العدو في الأندلس، وَهْنًا وتخاذلاً في صفوف جنوده، «فَأَمَرَ موسى سُرَادقَهُ، فَكشَفَ عن نسائه وبناته حتى يُرَوَّا؛ قال: فلقد كُسِرَتْ بين يديه من أغماد السيوف ما لا يُحصى. قال: وحمي المسلمون، واحتدم القتال، ثم إن الله فتح عليه ونَصَرَهُ، وجعل العاقبة له»⁽⁴²⁾.

ج - التعرف إلى أحوال العدو، وطبيعة بلاده: إذ كان هذا العاملُ من الأمور العسكرية البديهية، للتمكن من العدو، حيث أثبت المسلمون من خلاله، أنهم علماء نفسٍ واجتماعٍ في آن، فضلاً عن حنكتهم العسكرية المعروفة.

ومن ذلك، أن المسلمين، عندما همَّوا بافتتاح الأندلس، استطلعوا أحوال تلك البلاد،

(38) سورة «النساء»، الآية 143.

(39) انظر: المعجب، ص 133، ونفح الطيب، 357/4.

(40) الطروشى: سراج الملوك، ص 494.

(41) مقدمة ابن خلدون، ص 485.

(42) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ص 151.

ووقفوا على طبيعتها ونفسية سكانها؛ فأدركوا أنهم في مواجهة بلاد تختلف طبائع سكانها عن طبائعهم، وضروب مسالكها وشعابها ودروبها، مما لم تألفه دوابهم. فاحتالوا لذلك من فرسانهم وخيولهم ما يصلح لثلثها، فانداحت أمامهم... وهذا ما نستشفه من هذا الحوار بين الخليفة سليمان بن عبد الملك، وقائد الفتح في الأندلس، موسى بن نصير؛ قال الخليفة:

«... فَمَنْ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ فِرْسَانُكَ؟»

- قال: حَمِير.

- قال: فَأَيُّ الْخَيْلِ رَأَيْتَهَا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ أَصْبَرُ؟

- قال: شُقْرُهَا.

- قال: أَخْبَرَنِي عَنِ الرُّومِ...

- قال: أَسُوْدٌ فِي حِصُونِهِمْ، عُقْبَانٌ فِي خَيْوَلِهِمْ، نِسَاءٌ فِي مَرَاكِبِهِمْ: إِنْ رَأَوْا فُرْصَةً افْتَرَصُوهَا، وَإِنْ خَافُوا غَلَبَةً، فَأَوْعَالَ تَرْقَى فِي جِبَالٍ⁽⁴³⁾.

هذا، فضلاً عن التضامن والطاعة والحذر الدائم؛ وغير ذلك، مما يُشْعِرُ المنعة والقوة والتحكم بزمَامِ المبادرة.

الفرع الثاني:

هو الذي في مجمله يصيب العدو، ويُمارَسُ ضِدُّهُ بشكل مباشر، تبعاً لما خَبِرَهُ المسلمون، وللحال التي هم فيها وعليها. ويستند هذا الفرع أيضاً - لتأدية دوره - إلى عوامل كثيرة، منها:

الشجاعة: هي رأس الأمور وأصل المسائل، بها يتم الامتثال للأوامر، والانتهاز عن الزواجر؛ وهي ضرورة، وواجبة لاتخاذ القرار، كما هي ضرورة وواجبة في الميدان، للإقدام والالتحام وتحقيق الانتصار. لذا، كانت الشجاعة في الحروب القديمة - بل حتى في الحروب المعاصرة مع ما تشهده من تقدُّم تكنولوجي - أمضى سلاح لدى الجيوش، لتحقيق أهدافها. وهي واجبة الوجود عند القادة أولاً، لأنهم القدوة لمروؤوسيه من عناصر الجيش: بهم يتمثلون، ولأوامرهم يمتثلون. وقد قالت الحكماء: «أَسَدٌ يَقُوْدُ أَلْفَ ثَعْلَبٍ، خَيْرٌ مِنْ ثَعْلَبٍ يَقُوْدُ أَلْفَ أَسَدٍ»⁽⁴⁴⁾.

وقد أورد ابن عبد ربه في العقد، أنَّ بني فراس بن غنم بن كنانة، كانوا من أشجع العرب وأنجدهم، و «كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم؛ وفيهم يقول علي بن أبي طالب، لأهل الكوفة: مَنْ فَازَ بِكُمْ، فَقَدْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخِيْبِ، أَبْدَلَكُمْ اللَّهُ بِي مِنْ هُوَ شَرٌّ

(43) البيان المغرب: 21/2، الإمامة والسياسة، ص 187.

(44) سراج الملوك، ص 500.

لكم، وأبدلني بكم، من هو خيرٌ منكم: وَدَدْتُ والله أن لي بجميعكم - وأنتم مائة ألف - ثلثماية من بني فراس بن غنم»⁽⁴⁵⁾.

وهذا ما رَسَّخَهُ الله في قلوب المسلمين بقوله: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين﴾⁽⁴⁶⁾. أو بقوله: ﴿يا أيها النبي حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ، يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾⁽⁴⁷⁾... حيث استشعر المسلمون في أنفسهم العِزَّةَ والقوة، وارتفعت معنوياتهم، فجاهدوا وصبروا، وكان النصر حليف المؤمنين.

الرعب والترويع: نتيجة للشجاعة الفريدة التي أظهرها المسلمون في حروبهم، دَبَّ الرعب في قلوب أعدائهم، حتى باتوا يخشون لقاءهم، مهما ضُوِّلَت قوة المسلمين، وتعاضمت قوة الأعداء.

وقد زاد من أثر هذا الرعب، ما أتى به المسلمون - إلى جانب الشجاعة - من ضروب الترويع النفسي أيضاً، أو ما مَنَّ اللَّهُ به على المسلمين من ألوان التأييد الإلهي، نصرةً لهذا الدين الحنيف ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ، فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأَلْتُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾⁽⁴⁸⁾.

وقد ذكر ابن خلدون أن من أسباب النصر في المعارك - إلى الأسباب المادية - أسباب خفية: «وهي إما من خَدَعَ البشر وجيلهم في الأرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل... وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية، لا قُدْرَةَ لِلْبَشَرِ عَلَى اكْتِسَابِهَا، تُلْقَى فِي الْقُلُوبِ، فيستولي الرعبُ عليهم لأجلها؛ فتختلُّ مراكزهم، فتقع الهزيمة؛ وأكثر ما تقع هذه الهزائم عن هذه الأسباب الخفية، لكثرة ما يُعْتَمَلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا، حرصاً على الغلب؛ فلا بُدَّ من وقوع التأثير في ذلك، لأحدهما، ضرورة»⁽⁴⁹⁾.

وهو ما أشار إليه الرسول (ص) بقوله: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ؛ فَكَانَ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ سَبَبًا لِلْهَزَائِمِ فِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا، إِلَّا أَنَّهُ خَفِيَ عَنِ الْعَيُونِ»⁽⁵⁰⁾.

وقد اتخذ الرعب الذي بَثَّهُ المسلمون في قلوب أعدائهم - وهو غير الرعب الإلهي - صُوراً مختلفة، وطرقاً متعددة: فمنهُ الذي أحدثوه بمظهرهم أو سلوكهم، من غير تصادمٍ يُذكر؛ ومنه الذي قصدوا إليه قصداً، ومارسوه بقوة وعزم في مبادئ القتال،

(45) ابن عبد ربه: العقد، 83/1.

(46) سورة «البقرة»، من الآية 249.

(47) سورة «الأنفال»، من الآية 65.

(48) سورة «الأنفال»، من الآية 12. وانظر: سورة «الحزاب»، الآيات: 25 و26 و27، وسورة «الأنفال»: الآيات 17 و18،

وسورة «آل عمران»: الآيات 123 إلى 126.

(49) ابن خلدون: المقدمة، ص 490.

(50) ابن خلدون: المقدمة، ص 491.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحصى⁽⁵¹⁾.

ومن العوامل النفسية الأخرى التي ساهمت بشكل فعال في حروب المسلمين:

الصَيْتُ والشَّهْرَةُ: وقد جمع هذا العامل بين الشجاعة والرعب، لأنه يَنْهَلُ شجاعة فيُثْمِرُ رُعباً؛ وهو أحد العوامل التي جعلها ابن خلدون من الأسباب الخفية في إحراز النصر: «والسبب في ذلك، أنَّ الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها الأوهام.. لخفائها بالتلبيس والتصنع»⁽⁵²⁾.

والصيتُ والشهرة، ربما تناولا جماعةً بأكملها، أو شخصاً بعينه.. تبعاً لمعطيات وظروف معتبرة في حينها، لذاتها.

ومن الجماعات التي طار صيتها، وعمَّت شهرتها الآفاق، «بنو فراس بن غنم ابن كنانة» إذ «كان الرجلُ منهم يعدلُ عشرةً من غيرهم»⁽⁵³⁾، و «هوازن، وهم قومُ رُماةٍ، لا يكادُ يسقطُ لهم سهم»⁽⁵⁴⁾... ثم «المرابطون»، الذين كان لأبطالهم «في المعارك ضرباتٌ بالسيوف تُقْدُ الفارس، وطعنات تنظم الكلي فكان لهم بذلك ناقوس ورُعْبٌ في قلوب المنتدين لقتالهم»⁽⁵⁵⁾.

ومثُلُ هذا ما كان يُروى في الأندلس، من أنه «دارت حربٌ بين المسلمين والكفار، ثم افترقوا؛ فوجدوا في المعترك قطعة من بيضة الحديد، قدُرُ ثلثها بما حوته من الرأس؛ فيقال: إنه لم يَرَقْ قطُّ ضربةً أقوى منها... ولم يُسمَعْ بمثلها في جاهلية ولا إسلام. فحملتها الروم وعلقوها في كنيسة لهم؛ وكانوا إذا عُيروا بانهمزاهم يقولون: لقينا أقواماً هذا ضربهم؛ فيرحل أبطال الروم إليها ليروها»⁽⁵⁶⁾.

كذلك، «فقد شُهرَ عن «الموحدين»، أنهم لا يأسرون مشركاً محارباً إن ظفروا به، ولو كان ملكاً عظيماً، بل تُضْرَبُ رقابُهم، كثرُوا أو قَلُوا»⁽⁵⁷⁾.

والصيتُ والشهرة - كما سبقت الإشارة - لم يكونا للجماعات فقط، بل ربما اقتصر ذلك على الأفراد؛ إذ كان لعنترة العبسي من الخوف والرعبة في قلوب أعدائه، ما جعلهم يخشونه حياً وميتاً؛ حتى قيل فيه: لقد حمى قومه في حياته وفي مماته⁽⁵⁸⁾.

(51) انظر في هذا المجال: ابن القطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص 33 و34؛ ابن عبد ربه: العقد 1/70 و95، الطروشى: سراج الملوك: ص 499، 506؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان 5/321، 325؛ النويري: نهاية الأرب 6/170؛ ابن عذاري: البيان المغرب: 2/493؛ المقرئ: نفح الطيب: 1/229، 240، 243، 258، 260، 273.

(52) ابن خلدون: المقدمة، ص 492.

(53) ابن عبد ربه: العقد، 83/1.

(54) صحيح مسلم، 118/12.

(55) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/113.

(56) سراج الملوك، ص 494، 496.

(57) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 8/7.

(58) انظر حوله: مقدمة ديوان عنترة، ص 14، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت 1970.

غير أن أول من طارت شهرته في الإسلام، وصارت قوته وجرائته وفروسيته مضرب المثل بين الناس، هو علي ابن أبي طالب، قاتل بطل العرب في الجاهلية عمرو بن ودّ العامري⁽⁵⁹⁾، وفتح باب خيبر الأسطوري: فقد روى ابن اسحق عن أبي رافع مولى الرسول (ص)، أن الإمام علياً «لما دنا من الحصن (حصن خيبر) خرج إليه أهله، فقاتلهم، ضربه رجل من اليهود، فطرح ترسه من يده، فتناول علي عليه السلام، باباً كان عند الحصن، فترس به عن نفسه؛ فلم يزل في يده وهو يقاتل، حتى فتح الله عليه؛ ثم ألقاه من يده حين فرغ؛ فلقد رأيتني في نفر من سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهدُ على أن نقلب ذلك الباب فما نقلناه»⁽⁶⁰⁾.

وكذلك، كان علي ابن أبي طالب في غزوة «أحُد»، الفارس المغوار، الذي حمى بسيفه الإسلام، وأرغم المشركين على الفرار، وإنْ بصوت يتجلجلُ في أرجاء السماء:

لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار⁽⁶¹⁾

وإنْ بهذا الصوت يجد صداه في الأندلس؛ فنرى شاعرهم يُنشد:

إنْ تكن فارساً، فكُنْ كعلي أو تكن شاعراً فكُنْ كابنِ هاني
كلُّ من يدّعي ماليس فيه كذبُته شواهدُ الامتحان⁽⁶²⁾

ومن هؤلاء الأبطال أيضاً، عمرو بن مَعْدٍ يكر، صاحب السيف المشهور: «الصمصامة»⁽⁶³⁾.

وكما طار صيت أبطال الإسلام في المشرق، كذلك طار صيتهم في المغرب والأندلس. ويروي الطرطوشي، أنه كان بمدينة «سرقسطة» فارسٌ يقال له: «ابن فتحون».. و «كان أشجع العرب والعجم؛ وكان المستعين أبو المقتدر»⁽⁶⁴⁾ يرى ذلك له، ويعظمه، وكان يجري له في كل عطية خمسمائة دينار، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه، وهابت لقاؤه؛ فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه، فلم يشرب، يقول له: «إشرب - أو ابن فتحون رأيت في الماء...؟»⁽⁶⁵⁾.

(59) سيرة ابن هشام، 241/3. وانظر الكاندملوي: حياة الصحابة، 560/1.

(60) سيرة ابن هشام، 387/3. وقيل إن هذا الباب لم يحمله أربعون رجلاً؛ وقيل: سبعون رجلاً. انظر الكاندملوي: حياة الصحابة، 564/1.

(61) انظر: سيرة ابن هشام، 52/3، وتاريخ ابن الأثير، 58/2.

(62) لم أقف على قاتل هذين البيتين المشهورين، أما ابن هاني، فهو محمد بن هاني الأزدي الأندلسي، وهو في الأندلس كالمعتبي عند أهل المشرق. انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدياء، 92/19.

(63) بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معديكرب، أن يرسل إليه سيفه «الصمصامة»، فلما ضرب به عمر وجده دون ما بلغه عنه، فكتب إليه في ذلك: «فأجابه عمرو: «نما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث له بالساعد الذي يضرب به». انظر: نهاية الأرب، 6/200؛ العقد، 1/122. وانظر حول ابن معديكرب: مروج الذهب، 69/3 وما بعدها.

(64) هو المستعين ابن هود، مؤسس دولة آل هود وأحد ملوك الطوائف في الأندلس: المعجب، ص 71.

(65) سراج الملوك، ص 511.

كذلك، فقد عرف الفرنج من أبطال الأندلس، عبد الرحمن بن عياض، أحد فرسان «الموحدين»؛ وكان الفرنج إذا رأوا رايته «قالوا هذا ابن عياض، هذا مائة فارس... وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى، ما رَدُّهم عن البلاد»⁽⁶⁶⁾.

كما كان في «قرطبة» من صناديد المسلمين وقوادهم، من لا يفتُر عن محاربة، ولا يملُّ من مضاربة: أسماؤهم بأقاصي بلاد النصارى مشهورة، وآثارهم فيها ماثورة وقلوبهم على البُعد بخوفهم معمورة»⁽⁶⁷⁾.

الإشاعة: كانت الإشاعة وما زالت، من العوامل النفسية الشديدة الخطورة في ميادين الحروب، لما لها من أثر عميق في تفتيت الجيوش وشرذمتها، وتحطيم معنوياتها، ونَشْرِ الفوضى وخلق الإرباك في صفوفها.

والإشاعة لا تعني بالضرورة، بَثُّ خبرٍ لا أساس له من الصحة، فقط؛ بل ربما قامت على بَثِّ خبرٍ صحيح أو إفشاء سرٍّ ما، يحرص العدو على إخفائه، لحساسيته بالنسبة لمعنويات جنوده. وأكثر الموضوعات تناوُلًا في هذا المجال، حياة الملوك والقادة وأولي الأمر؛ لأن قوام الجيش بحياة قائده، وهلاكه بهلاكه.

ولعلَّ أول وأخطر الإشاعات التي عرفها المسلمون في حروبهم، الإشاعة التي بثَّها المشركون في غزوة «أُحُد»، حول مقتل «النبي (ص)، بعد أن تمكنوا من جَرْجِه في غِرَّة من أصحابه، إذ راحوا يُنادون في ميدان المعركة: «قُتِلَ محمد، قُتِلَ محمد»، فلما سمع المسلمون ذلك، لاذوا بالفرار، غير فئةٍ قليلة ثبتَّت تدافع عن النبي (ص) بكُلِّ ما أوتيت من قوة»⁽⁶⁸⁾.

ولما وقف المسلمون فيما بعد على مجريات المعركة، وأدركوا خطورة هذه اللعبة وأثرها النفسي، في ميادين الحروب، عمدوا خلال فتوحاتهم الكثيرة اللاحقة إلى استخدامها، سلاحاً فعّالاً، له تقنياته الخاصة لتسريع وإحراز النصر.

ومن هذه المعارك التي لجأ فيها المسلمون إلى «سلاح الإشاعة»، معركة «ملاذكرت» التي جرت سنة 462هـ بين الملك السلجوقي ألب أرسلان، وأرمانوس ملك الروم؛ إذ بعد أن هال المسلمون ما رأوه من كثافة جيش الروم، عمدوا إلى اقتناص فرصةٍ لاحت لهم لتسديد ضربتهم، حيث هاجموا ملك الروم، بعد أن استوثقوا من خيمته، وتمكنوا من أسره، ثم راحوا ينادون بلسان الروم: «قُتِلَ الملك»؛ فسمعت الروم أن ملكهم قد قُتِل، فتمزقوا كلُّ ممزق، وعمل السيفُ في صفوفهم، وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم»⁽⁶⁹⁾.

(66) المعجب، ص 209.

(67) نفح الطيب، 216/3.

(68) انظر: صحيح مسلم، 147/2، وابن الأثير، 85/2.

(69) انظر: زبدة التواريخ، ص 107، وسراج الملوك، ص 508، 510.

من هنا، كان قول العرب «رُبَّ كلمةٍ هزمتُ عسكرياً»، و «الرأي السديد أحمى من البطل الشديد».

التخلق والتوهيم النفسي: ومن العوامل النفسية الغربية، التي سلكها المسلمون لإحراز انتصاراتهم: «التخلق والتوهيم النفسي». وهذا العامل هو دليل آخر على أن المسلمين كانوا لا يكتفون باستطلاع أحوال وأسرار أعدائهم العسكرية، بل كانوا يستطلعون، ويحاولون أن يقفوا في أيام السلم وقبل المعركة، على كل أمور أعدائهم، وأحوالهم الاجتماعية والنفسية وتقاليدهم وعاداتهم وأسباب معيشتهم، حتى إذا دق النفير، وأعيتهن المكيدة العسكرية المباشرة، لجأوا إلى حيلة أخرى، انطلاقاً من جهل عدوهم لما لديهم، ومعرفتهم بما عنده.

ومن ذلك، أن موسى بن نصير، عندما عبر إلى الأندلس بعد طارق بن زياد، حاصر عِدَّةً مُدُنٍ واحتلها، باستثناء مدينة «ماردة»، فإنها كانت «ذات عزٍ ومنعة، وفي أهلها بأس عظيم»⁽⁷⁰⁾، فلم يتمكن منها، ثم دعا القوم إلى السلم، واحتال في توهيمهم في نفسه؛ فدخلوا عليه أول يوم، فإذا هو أبيض الرأس واللحية، كما نَصَل خضابه، فلم يتفق لهم معه أمر. وعَاوَدوه قَبْلَ الفِطْرِ بيوم، فإذا به قد قَنَأَ لحيته بالجِئَاء، فجاءت كُضْرَام عَرَفَج⁽⁷¹⁾، فعجبوا من ذلك، وعَاوَدوه يوم الفطر، فإذا هو قد سَوَّدَ لحيته، فازداد تعجُّبهم منه... وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله... فقالوا لقومهم: إِنَّا نقاتلُ أنبياء يتخلَّقون كيف شاؤوا؛ والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يساله، فما لنا به طاقة. فاذعنوا عند ذلك»⁽⁷²⁾.

الفرع الثالث:

ويقع تأثيره على المسلمين وعلى أعدائهم في آن معاً، ومن عوامله:

- حرب الأعصاب: ويقوم هذا العامل بصورة رئيسة على تبادل رسائل التهديد والوعيد، وأحاديث الثار والانتقام، مع تعظيم قوة الذات، ومطالبة الآخر بالخضوع والاستسلام، وتقديم التنازلات السياسية والاقتصادية والجغرافية وغير ذلك.

وقد كان المسلمون في هذه الحرب، تارة في موقع الهجوم، وتارة في موقع الدفاع؛ غير أنهم في كلا الحالتين، كانوا يثيرون الرعب في نفوس الأعداء بما سلكوه في خطاباتهم وردودهم من عبارة موجزة، ولهجة صارمة واثقة، مع ما يُسدلونه على ذلك من غموض هادف ومحسوب.. الأمر الذي كان يوقم أعداءهم في حالة من الحيرة والإرباك، وعدم

(70) نفخ الطيب، 1/ 270.

(71) قَنَأَ لحيته قَنُوءاً: جعلها شديدة الخُمْرة... والضَّرام: تَوَقَّدُ النار والتهابها... والعَرَفَج: شجرٌ سهليٌّ شديد الالتهاب بالنار مع احمرار لونه. والمعنى: أن لحيته اشتعلت احمراراً كلبِ العَرَفَج.

(72) نفخ الطيب، 1/ 270.

التقدير الدقيق لظروف الموقف.

ومن أبرز الذين سلكوا هذا النهج في الإسلام، خالد بن الوليد، الذي كتب إلى مرازية فارس مع ابن نفيلة الغساني، قائلاً:

«الحمد لله الذي فضَّ حُرْمَتَكُمْ، وَمَزَّقَ جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلبَ مُلْكَكُمْ، وأولَّ عَزَّكُمْ. فإذا أتاكم كتابي هذا، فابعثوا إليَّ بالرهن، واعتقدوا مِنَّا الذِّمَّةَ، وأجيبوا إلى الجزية، وإلاَّ، والله الذي لا إله إلاَّ هو، لَأَسِيرَنَّ إليكم بقومٍ يُحِبُّونَ الموتَ كما تحبونَ الحياة. ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا»⁽⁷³⁾.

وفي الأندلس، كان ملوك الطوائف كلما اشتدت عليهم وطأة الفرنج، أربهوهم بإظهار موالاتهم لملك المغرب المرابطي يوسف بن تاشفين، الذي أخذ «يمدُّهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش، والخيل إثر الخيل» حتى تمَّ له الأمر في الأندلس، وهو يقول في كل مجلس من مجالسه: «إنما كان غرضنا في تلك هذه الجزيرة، أن نستنقذها من أيدي الروم... ولئن عشتُ، لأُعَيِّنَ جمع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة، إلى المسلمين، ولأَمْلَأُهَا عليهم (أي الروم) خَيْلاً وَرَجَالاً لا عهدَ لهم بالدَّعة، ولا عِلْمَ عندهم برِخاء العيش، إنَّما هُمُ أَحَدِهِمْ؛ فرسٌ يروضُهُ ويستقرهه، أو سلاحٌ يستجيده، أو صريخٌ يلبي دعوته»، وغير هذا من القول: «فيلبِّغُ ذلك ملوك النصارى، فيزدادُ قَرَقُهُمْ»⁽⁷⁴⁾.

أما ردود يوسف بن تاشفين على تهديدات الفرنج، فلم تكن عليهم أقلَّ وطأة من أحاديثه:

ومن ذلك، أنه لما وافت عساكرُ بن تاشفين، المعتمدَ ابن عباد في إشبيلية قبيل معركة الرِّلاقة المجيدة 479هـ/1086م، وعلم الفونسو السادس بالأمر، أرسل إلى ابن تاشفين كتاباً يغلظ له في القول، يصفُ ما معه من القوة والعدد والعُدَّة، وبالغ في ذلك مبالغة كبيرة. فلما وقف عليه ابن تاشفين، أمر أن يُكْتَبَ ظهر كتاب الأدفونش: «الذي يكون ستره»، وأرسله إليه؛ «فلما وقف عليه الأدفونش ارتاع له، وعلم أنه بلي برجلٍ لا طاقة له به»⁽⁷⁵⁾.

وروى ابن خلكان، أنه في أواخر 590هـ، عزم السلطان يعقوب المنصور - وهو حينئذ في مراكش - على التوجه إلى الأندلس لمحاربة الفرنج، فلما وَصَلَ إلى مدينة «سلا»⁽⁷⁶⁾، مرض مرضاً شديداً، فحُمِّلَ بسببه إلى مراكش، وتوقف العمل في تدبير

(73) العقد، 1/ 92.

(74) انظر: المراكشي: المعجب، ص 163.

(75) انظر: نفح الطيب، 4/ 361.

(76) مدينة عريقة تجاور مدينة الرباط، ولا يفصلهما عن بعضهما سوى وادٍ صغير يجري فيه نهر «أبو الرقاق».

انظر: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1968، ج. 3/ 231، الحميري: الروض المعطار، تح. إحسان عباس،

مكتبة لبنان، بيروت، 1975م، ص 319.

الجيش، فانتهز ألفونسو الثامن، الفرصة، وعاث في ما يليه من بلاد المسلمين في الأندلس، وبعث إلى السلطان يعقوب مهدياً متوعداً، طالباً تسليم بعض الحصون المتاخمة لحدود في الأندلس. وقد كتب في ذلك رسالة فيها كثير من الإزدراء والتحقير، فلما وصل كتابه إلى السلطان يعقوب، مزقه وكتب على ظهر قطعة منه: «ارجع إليهم، فلنأتيهم بحشود لا قبل لهم بها، ولنخرجهم منها اذلة وهم صاغرون»⁽⁷⁷⁾، الجواب ما ترى، لا ما تسمع:

ولا كُتِبَ إِلَّا المشرفية عنده ولا رُسِلَ إِلَّا الخميسُ العرمرمُ⁽⁷⁸⁾

ثم أخذ بتجهيز الجيش، وعبر إلى الأندلس ليهزم ألفونسو الثامن في معركة «الأرك» العظيمة سنة 591هـ⁽⁷⁹⁾.

على أن أهم ما امتحن به المسلمون في هذا المجال، كان على أيدي المغول، في القرن السابع للهجرة، حيث لاقت حربهم النفسية ضد المسلمين نجاحاً منقطع النظير؛ إلى أن قيض الله لنصرة دينه، سيفاً من سيوف الإسلام المسلحة، هو الملك المظفر سيف الدين قطز، الذي قصم ظهر المغول في معركة رمضان أضاءت ظلمة التاريخ، هي معركة «عين جالوت» في فلسطين سنة 658هـ/1260م، حيث قتل الملك المظفر قائدهم كتيبانوين، وطارد قلوبهم حتى أطراف حلب.. دون أن يتأثر، كما تأثر سواه، بتهديدات هولاكو، وإنذاراته المتواصلة؛ حيث يُعتبر كتاب هذا الأخير إلى الملك المظفر قطز، واحداً من أكبر وأصعب وأخطر التحديات التي واجهت ملكاً من ملوك المسلمين على الإطلاق، إذ أتى هذا الكتاب، وقد ابتلى العالم الإسلامي وغيره بعشرات من الهزائم والمحن عبر سنوات طويلة، على أيدي هذا الطاغية المغولي، فضلاً عن ضراوة الهجمة النفسية التي شحنت بها هذا الكتاب لترويع الملك المظفر قطز. ومن هذا الكتاب:

«من ملك الملوك شرقاً وغرباً، الخان الأعظم: باسمك اللهم، باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته، وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلّقنا من سخطه، وسلطنا على من حلّ به غضبه، فلکم بجميع البلاد مُعْتَبَر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ.. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد: فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأبى أرض تأويكم، وأبى طريق تنجيكم، وأبى بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص؛ فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال؛ فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع،

(77) سورة النمل، الآية 37.

(78) انظر: وفيات الأعيان، 7/7.

(79) انظر: المعجب، ص 282، وابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/7 وما بعدها.

ودعائكم علينا لا يُسمع... فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سَلِم، فإن أنتم لَشَرُّنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تُهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر... فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرب الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً، ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً، وتُدْهون مِنَّا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية: فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وايقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصدٌ سواكم...»⁽⁸⁰⁾.

الموسيقى العسكرية: ومن الأسلحة النفسية ذات الأثر العميق، التي فاجأ بها المسلمون أعداءهم: الموسيقى العسكرية، التي كانت ترافق الجيوش في كثير من غزواتها ومعاركها. وقد كان لهذا السلاح النوعي فوائد عديدة، ومآثر سديدة في أن:

فإلى مظاهر الجلال والأبهة والحماس، ورفع معنويات الشعب، من خلال الأجواء الخاصة التي كانت تُضفيها على الموكب والاحتفالات المختلفة، في أيام السلم⁽⁸¹⁾، كانت هذه الموسيقى تفجّر عنفوان الجنود وتذكي حماسهم في ميدان المعركة؛ فإذا حجب غبار التصادم عن الجندي رأى أعلامه وراياته، ليقف من خلال أوضاعها وحركاتها على تطورات المعركة، فإن ذلك لن يحجب عن مسامعه ضربات الطبول، وزعيق الأبواق؛ وما دامت هذه الأصوات الحماسية ترتفع وتُسمع، فمعنى ذلك أن المعركة تسير لصالحه؛ فيصدق عندئذ حملته لإحراز النصر.

وقد جرت العادة عند المسلمين، أن تكون الموسيقى من جيوشهم في موضع «القلب»⁽⁸²⁾، حيث مكان القائد وحماة الرجال وكماة الأبطال. «فإذا كانت رايأته تخفق، وطبوله تضرب، كان حصناً للجناحين يأوي إليه كلٌّ منهم»⁽⁸³⁾ ليهده رَوْعُهُ ويثبت فؤاده...

في الوقت عينه، إذا سمع الأعداء أصداء تلك الموسيقى، أدركوا أنه قد أسقط في أيديهم، فتنهار عزائمهم، وتسرع الهزيمة إلى صفوفهم. «ذلك أن الفارس لا يزال على

(80) المقرئزي: السلوك، تح. محمد زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1934، 1/ 427 - 429؛ ابن أبيك: كُنْز الدرر، 8/ 54 وما بعدها. القلقشندي: صبيح الأعشى، 63/ 8. وانظر أيضاً كتب هولاكو إلى «الناصر» صاحب دمشق، في كتاب تاريخ الخلفاء، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة 1959 ص 473 للسيوطي.. ثم انظر في هذا المجال، ما عرضه ابن عربي بإسهاب وتشويق في كتابه محاضرة الأبرار، 2/ 396 وما بعدها - عمّا دار بين «اليون» ملك الروم ومسلمة بن عبد الملك بن مروان، عندما اجتاحت هذا الأخير بلاد الروم، ووصل إلى القسطنطينية... وكذلك صدر الدين الحسيني في زبدة التواريخ، ص 113، وما دار بين ألب أرسلان السلجوقي وأرمانوس ملك الروم.

(81) انظر في هذا المجال: عبد العزيز بن عبد الجليل: «الموسيقى الأندلسية المغربية»، سلسلة «عالم المعرفة»، الكويت عدد رقم 129، ص 255.

(82) كان الجيش يقسم إلى: قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وساقة (مؤخرة).

(83) سراج الملوك، ص 502.

حميته بالدفاع وَحُمِي الذمار، حتى يلتفت فيرى وراءَهُ بَنَدًا منشوراً، أو يسمع ضرب
الطبول، فحينئذٍ، هِمَّتْهُ خلاصُ نفسه»⁽⁸⁴⁾.

القسم الثالث

وهو مما يكون بعد انتهاء المعركة، ليكرس ويعزز العوامل النفسية الأخرى التي
سبق للمسلمين أن شرعوا بها في أوقات مختلفة لتحطيم معنويات العدو.

ومما يندرج في هذا الإطار:

- **المبالغة في إذلال العدو:** وهي عادةٌ درج عليها المسلمون عقب انتصاراتهم في
ميادين المعارك، لإماتة نفسية العدو - أو ما تبقى منها - إماتةً تامة، كي لا تقوم له
بعد ذلك قائمة. وذلك عبر وسائل كثيرة لا مجال لذكرها الآن⁽⁸⁵⁾.

قصائد الحرب وأشعار الحماسة: من خلال استعراضنا لتاريخ حروب العرب
والمسلمين مع أعدائهم، على امتداد العصور، نقف على عامل مهم من عوامل تحقيق
الانتصارات في تلك الوقائع؛ وهو عامل، لم يُعط - في رأينا - ما يستحقه من الاهتمام
والدراسة؛ ألا وهو: دورُ الشعر، العملي والميداني في مجريات الأمور ووقائع الأحداث
وساحات المعارك: إذ من الملاحظ، أن الجيش الإسلامي - سواء في البر أو في البحر -
لم يكن يحاربُ بسواعد رجاله، أو بما يملكه من أسلحة ومعدات، أو بما عليه من
تدريبٍ عالٍ وجهوزيةٍ دائمة، وانضباط تام، أو بما هو مشبع به من عقيدة عظيمة يجدُّ
نفسه معها، على أهبة الاستعداد للتضحية في سبيلها بكل غالٍ ونفيس، أو بما يكتنفه من
مؤثرات نفسية أخرى متنوعة... وحسب، بل أيضاً، بذلك الجيش المقاتل الخفي، المُتفجر
في صدور الرجال براكين هادرة، من الجراءة والاندفاع والشجاعة... هذا الجيش المتمثل
بتلك القصائد العصماء، التي كانت تسري في أوساط الشعب والجيش على السواء،
سريان النار في الهشيم، تحثهم على الجهاد، وتثير في جوانحهم حَمِيَّة الإسلام وعِزَّتَه،
وتدفعهم لإنصرة إخوانهم في الدين، في كل مكان.

وقد كانت هذه القصائد على مرَّ العصور، على جانب خطير من الأهمية من حيث
إيقاظ الشعب وتوعيته، وتنبيهه على أن يبقى دائماً حَظِراً مستَعِداً، ومستنفراً لأي
طارئ... وذلك في إطار التعبئة النفسية التي نراها اليوم من خلال الموسيقى والأناشيد
الوطنية الكثيرة... الأمر الذي يُتطلب معه دراسة مستقلة تفي هذا الشعر حقَّه.

(84) سراج الملوك، ص 502.

(85) انظر على سبيل المثال: الطروشى: سراج الملوك، ص 502، ابن عذاري: البيان المغرب: 95/2، 180، ابن عربي:
محاضرة الأبرار، 398/2، الصدر الحسيني: زبدة التواريخ، ص 107، المقرئ: نفح الطيب 1/ 595، 4/ 368.

خلاصة

من خلال ما تقدم، وبعد دراسة متأنية ووافية للفتوحات الإسلامية، نجد أنفسنا فخورين جداً، بما بلغه أسلافنا من مستوى حضاري رفيع المقام، حيث كانوا السباقين إلى الخلق والإبداع في كثير من مجالات الرقي والتقدم...

ولكننا إلى جانب هذا، نجد أنفسنا وجهاً لوجه، أمام حقيقة تاريخية ثابتة، شأنها عند العرب والمسلمين، شأنها عند الشعوب الأخرى؛ وهذه الحقيقة تتمثل في وجّهين:

- أولاً: إن أقوى سلاح شهده المسلمون في وجه أعدائهم، وفي مواجهة الفقر والتخلف، والانتقال سريعاً من البداوة إلى الحضارة... وكان المفتاح السحري لتحقيق النصر في معظم مواجهاتهم وتحدياتهم، إنما كان سلاحاً نفسياً محضاً: إنه سلاح «الوحدة والتضامن».. قلباً وقالِباً:

فهم لم يتمكنوا من التغلب على شرذمة القبائل العربية المختلفة.. ومن ثم، من القضاء على الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية - أكبر قوتين في ذلك الزمن - ثم لم يتمكنوا من افتتاح الأندلس - على قلة عددهم وضآلة إمكانياتهم - إلا لانهم كانوا صفاً واحداً، معتصمين بحبل الله جميعاً ولم يتفرقوا..

وهم لم يتوصلوا إلى أن يصبحوا منارةً للحضارة الإنسانية، في عصورهم الزاهرة - العباسية والأندلسية على وجه الخصوص - إلا لأن جميع إمكانياتهم وطاقتهم، كانت موجهة نحو هدف واحد.. يرفد بعضها بعضاً.. بقلبٍ واحدٍ ويدٍ واحدةٍ....

وهم لم يسجلوا انتصاراتهم الخالدة في «القادسية» أو «اليرموك» أو «عين جالوت» أو «الزلاقة» أو «الارك»... أو غيرها، إلا بعد أن غيَّروا ما بأنفسهم وعادوا إلى حال التوحد والتضامن..

ولم تأتِهم أمم الأرض خاضعة مستسلمة، إلا وهم كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضهم بعضاً، ويطيعون الله ورسوله وأولي الأمر منهم... ثم لم تستنجد هذه الأمم بهم لتسوية خلافاتها، إلا لانهم كانوا هم الأعْلون، إذ أبقوا كلمة الله هي العليا⁽⁸⁶⁾...

وقد نبّه الله سبحانه وتعالى إلى هذا الأمر الخطير منذ فجر الدعوة الإسلامية، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾⁽⁸⁷⁾.. كذلك بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾⁽⁸⁸⁾.

(86) انظر: المقرئ: نفح الطيب، 1/366، وابن عربي: محاضرة الأبرار، 2/454.

(87) سورة «الأنفال»، الآيةان 45 و46.

(88) سورة «آل عمران»، الآية 102.

هذا إلى جانب آيات قرآنية أخرى، وأحاديث نبوية كثيرة، في هذا المجال⁽⁸⁹⁾. كذلك، فقد نبّه إلى عامل الوحدة والتضامن، حكماء العرب، فقالوا: «أول الظفر الاجتماع، وأول الخذلان الافتراق، وعماد الجماعة السمع والطاعة»⁽⁹⁰⁾.

واستوصى قومٌ أكثم بن صيفي العمل في الحرب، فقال: «أقلّوا الخلاف على أمرائكم؛ فلا جماعة لمن اختلف عليه، ولا ظفر مع اختلاف.. واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل؛ وتنبّثوا: فإن أحزم الفريقين الركين»⁽⁹¹⁾.

- ثانياً: إنّ أخطر سلاح وُجّه إلى صدر العرب، فقهرهم وأذلّهم، إنما هو سلاح صنعوه هم بأيديهم.. ثم وُضِعوه على طبق من ذهب، وقدموه هدية إلى أعدائهم: إنه سلاح «التفرقة والتطاحن والتشرذم».

نعم، لقد تفرقوا، وتنازعوا، وفشلوا وذهبت ريحهم، وقُلّت هيبتهم أمام عدوهم، فطمع بهم، وأناخ عليهم بكلّ، وأرهقهم بمغارمه.

ونحن، لو عاودنا دراسة أسباب الهزائم التي مُنّي بها العرب والمسلمون خلال تاريخهم الطويل، لَوَجَدْنَا على رأس تلك الأسباب - إن لم يكن سببها الوحيد - «التفرقة والتشرذم».. حتى إن بعضهم - في الماضي والحاضر - اتخذ العدو بطانة له من دون إخوانه، يستظهر به عليهم؛ وكأنه لم يقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾⁽⁹²⁾.. أو قوله تعالى: ﴿يَشْرُ الْمُنَافِقِينَ بَأْنْ لَهُمْ عَذَابُ الْيَمَاءِ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يُبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ، فإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾⁽⁹³⁾..

إن هذا الأمر، دفع كثيراً من علماء المسلمين وفلاسفتهم، إلى التحذير من ذلك الانبساط أمام العدو، وأنكروا على الحكام أفعالهم وارتباطاتهم وعماليتهم للأجنبي؛ حتى إن بعضهم أعلن الثورة، والبعض الآخر شكل قوى معارضة تتصدى لهؤلاء الحكام بكل الوسائل المتاحة وتقضح أعمالهم وممارساتهم الظالمة بحق شعبهم، بل لقد ذهب، ولا يزال يذهب عدد من كبار العلماء والمفكرين إلى وُضْعِ الكتب العنيفة ضد هؤلاء الحكام، دون أن يخشى في الله لومة لائم.

ومن هؤلاء العلماء العظام، علّامة الأندلس وفيلسوفها في عصره، صاحب المذهب الظاهري الإمام أبو محمد، علي بن حزم الأنفي الذكر، الذي عاصر «ملوك الطوائف»،

(89) انظر على سبيل المثال: سورة «الأنفال»، صحيح مسلم، 222/12، والكاندملوي: حياة الصحابة، 7/1 وما بعدها.

(90) الطروشني: سراج الملوك، ص 512.

(91) ابن عبد ربه: العقد، 70/1 (مطبعة الاستقامة) وسراج الملوك، ص 506 و512.

(92) سورة «آل عمران»، الآية 28.

(93) سورة «النساء»، الآيتان 137 و138.

وعاين أفعالهم، وشهد تنكرهم للدين وارتداءهم في أحضان ملوك اسبانيا فلم يسعه إلا أن يشن عليهم حملة شعواء، تظهر مساوئهم ومفاسدهم، وذلك في كتابه المشهور رسالة التلخيص لوجوه التخليص... ثم جاء المَقْرِي بعد ذلك، ليؤكد ما ذهب إليه ابن حزم، بالقول: «... وصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض، وإسلام حصون المسلمين إليه في ذلك»⁽⁹⁴⁾.

وتُعتبر معركة «العقاب» التي جرت في الأندلس سنة 609هـ/1212م، في أواخر عصر الموحدين مثلاً واضحاً جلياً على ما ذهبنا: إذ كانت هذه المعركة بالفعل «عقاباً» للمسلمين على تفككهم وتشردهم، وإيذاناً بقرب طردهم من الأندلس، وهو ما أكدّه عبد الواحد المراكشي الذي عاصر هذه المعركة أيضاً، نقلاً عن شاهد عيان، إذ قال:

«وأكبر أسباب هذه الهزيمة، اختلاف قلوب «الموحدين»... خرجوا وهم كارهون؛ فبلغني عن جماعة منهم، أنهم لم يسلّوا سيفاً، ولا شرعوا رُمحاً، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال؛ بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم، قاصدين لذلك»⁽⁹⁵⁾؛ فُحصدت رؤوس المسلمين حصداً، ولم يسلم منهم إلا القليل؛ وكانت تلك الواقعة - كما يقول المَقْرِي -: «سبب ضعف المغرب والأندلس: أما المغرب، فبخلاء كثير من قراه وأقطاره؛ وأما الأندلس، فبطلب العدو عليها»⁽⁹⁶⁾.

وهو ما استكمّله بنو الأحمر - ملوك غرناطة - فيما بعد، بارتهانهم للتاج الإسباني، فضلاً عن تناحرهم الدائم في ما بينهم... حتى سقطت غرناطة شهيدة الخيانة والتآمر والتفرقة، في قصة تطول⁽⁹⁷⁾.

وحال التفرقة، التي أدّت إلى ضياع الأندلس، هي الحال عينها التي أدّت إلى نزول نكبات كبرى ببلاد المشرق الإسلامي أيضاً؛ ولو عدنا إلى قصيدة ابن حزم، في الردّ على «القصيدة الأرمنية»⁽⁹⁸⁾ لَوَجَدنا أن روح التناحر بين أبناء الصف الواحد، كانت العامل الأهم في إنزال الهزيمة بالمسلمين، إذ يقول ابن حزم:

سَلَبْنَاكُمْ كَرّاً فَفُزْتُمْ بِعِزَّةٍ من الدهرِ أفعالِ الضّعافِ العزائمِ
فَطَرْتُمْ سُروراً عند ذاك ونشوةً كفعل المَهيّن الناقص المتعاضمِ

(94) المَقْرِي: نفح الطيب، 1/ 446 وما بعدها.

(95) عبد الواحد المراكشي: المعجب، 322.

(96) نفح الطيب، 1/ 446.

(97) انظر تفاصيل ذلك مدعماً بالوثائق المصورة في كتاب: محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس.

(98) هذه القصيدة أرسلها ملك الروم نيسفور فوكاس (والعرب تسمّيه: نَقُورُ الملقب بالدمستق ملك الأرمن: البداية والنهاية: 244/11) إلى الخليفة العباسي للطبع لله، حوالي سنة 352 هـ، متهمكاً، بعد أن صال وجال في بلاد المسلمين القريبة من حدوده، وقد ضمّ كثيراً من مدنها وسواحلها إلى مملكته... فتصدى للرد عليه كثير من الأعلام على مَرَّ السنين، منهم إمام الشافعية في العراق أبو بكر القفال (توفي سنة 366 هـ)، وعالم الأندلس صاحب المذهب الظاهري ابن حزم (توفي سنة 456 هـ). انظر: السبكي: طبقات الشافعية، مصر 1324 هـ/2/ 176، وابن كثير: البداية والنهاية: 244/11.

ولمّا تنازعنا الأمورَ تخاذلاً ودأبّت لأهل الجهلِ دولةٌ ظالمِ
وقد شَغَلَتْ فينا الخلائِفَ فِتْنَةٌ لعبدانهم مع تُركهم والديالِمِ
بكفر أياديهم وَجَحَدِ حقوقهم لمن رفعوه من حضيض البهائم
وَتَبَيَّنْتم على أطرافنا عند ذلكم وَثُوبَ لُصُوصٍ عند غفلةِ نائمٍ⁽⁹⁹⁾....

... وهكذا، فقد العرب والمسلمون الأندلس، وكثيراً من أطراف البلاد في المشرق ثم فقدوا فلسطين، وهم لا يزالون حتى اليوم يفقدون بين الفينة والفينة، بعضاً من أراضيهم.. أو حتى إرادتهم أو قرارهم الوطني المستقل... وما ذاك، إلا لأنهم أضاعوا مفتاح انتصارهم... ومنذ ذلك الحين، والأراضي السليبية، أو المفقودة، أو الموعودة، هي للعرب والمسلمين وَجَعٌ تاريخيٌّ دائم... بل لقد طمى السيل وتراكمت تلكم الأوجاع، لأنهم لم يُحسنوا حتى الآن قراءة التاريخ... ولم يُفلحوا بإعادة العثور على ذلك المفتاح بعد...

والله مع ذلك، يشدُّ من أزرهم، ويقوي في عضدهم، ليسلكوا جادة الصواب والحق، وتبقى كلمتهم هي العليا، فيخاطبهم قائلاً:
﴿وَلَا تَهِنُوا، وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁰⁰⁾.

(99) ابن كثير: البداية والنهاية، 11/244.

(100) سورة آل عمران، الآية 139.